

العبادة في الإسلام وعلاقتها بالتوحيد

محمد نبيل العمري*

ملخص

تتناول هذه الدراسة الحديث عن علاقة العبادة بالتوحيد، والإجابة عن سؤال يتبادر إلى الأذهان هو: لماذا العبادة؟ وهل الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى عبادتنا؟. كما بيّنت غاية العبادة وأثارها على الإنسان والمجتمع ليترقى الإنسان إلى مرحلة السموّ الإنساني، وليكون صالحاً للاستخلاف في الأرض، وليكون المجتمع فاضلاً كما أراد الإسلام له ذلك. وأظهرت هذه الدراسة أنّ العبادة ليست مقصورة على العبادات البدنية المخصصة من صلاة وصيام.. إلخ، بل العبادة بمعناها الشامل والواسع تشمل ظاهر الإنسان وباطنه، كما تشمل فعل الطاعات وترك المنكرات، والحركات القلبية وأفعال العقل من نظر وتدبّر وكل ما يعكس على سلوكه ليكون سيّداً في هذا الكون، ملتزماً بأخلاق خير أمة أخرجت للناس. الكلمات الدالة: العبادة، التوحيد.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وتابعيهم إلى يوم الدين، وبعد: فإنّ من أهم وأول ما أنزل الله على أنبيائه تصحيح الانحراف في عبادة الله. وعبادة الله سبحانه مرتبطة ارتباطاً تلازمياً وثيقاً بالإيمان به وتوحيده؛ فلا عبادة مقبولة إلا بتوحيد الله، وهذا التوحيد هو الركن الأساسي في قبول الإيمان. وإذا كانت العلاقة بين عبادة الله وتوحيده تلازمية؛ فالفصل بينهما يؤدي إلى خلل في الفهم الديني، سيما إذا اقتصرنا في مفهوم العبادة على الأركان المفروضة فقط، ولكن الله سبحانه جعل العبادة مجالاً واسعاً وإطاراً شاملاً لكل أعمال الإنسان الخيرية التي يراد التقرب إليه سبحانه، تقريباً يؤدي إلى رضاه ومحبته وجنته في نهاية الأمر. ولكي نتوسع أكثر في هذا المفهوم، ومعرفة علاقة العبادة بوحداية الله، فقد ارتأيت إنشاء بحث لهذه الغاية وسمّته بـ"العبادة وعلاقتها بتوحيد الله تعالى".

مشكلة الدراسة: تحجب هذه الدراسة عن الأسئلة الآتية:

1- ما تعريف العبادة، والتوحيد؟ وما الأدلة الشرعية الرابطة بينهما؟

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2015/2/11، وتاريخ قبوله 2015/4/12.

2- ما دور التوحيد في مفهوم العبادة المقبولة؟

3- كيف يوجّه التوحيد الغاية من العبادة؟

4- ما الخصائص التي تختص بها العبادة المرتبطة

بالتوحيد؟

5- ما الآثار المترتبة على ربط العبادة بالتوحيد؟

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى ما يأتي:

1- توجيه مفهوم العبادة وجهة عقديّة يربطها بأصل العقيدة الإسلامية وهو التوحيد.

2- بيان دور التوحيد في جعل العبادات محققة للغايات التي خلق لأجلها الإنسان.

3- إبراز خصائص العبادة المرتبطة بالتوحيد عن غيرها من العبادات.

4- النظر في الآثار المترتبة على تحقيق العبادة النابعة من أصل التوحيد في الفرد والمجتمع والأمة كلها.

أهمية الدراسة: تتلخص أهمية هذه الدراسة بـ:

1- الربط المنهجي بين القيام بالعبادات الشعائرية والاعتقاد النابع من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية.

2- محاولة توجيه النظر إلى المفاصل التي قد تترتب على الفصل بين العبادة والتوحيد من خلال إبراز النقيض.

3- النظر في العلاقة بين أساسين من أسس الإسلام، التي لا يقوم الإيمان إلا بهما وهما التوحيد والعبادة.

خطة الدراسة

المبحث التمهيدي: تعريف العبادة، والتوحيد وعلاقتها؛ وفيه مطالب:

المطلب الأول: تعريف العبادة في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثالث: العلاقة بين العبادة والتوحيد.

المبحث الثاني: مفهوم العبادة المقبولة وغايتها وارتباطها بالتوحيد وفيه مطلبان:

المطلب الأول: العبادة المقبولة وارتباطها بالتوحيد.

المطلب الثاني: غاية العبادة وارتباطها بالتوحيد.

المبحث الثالث: خصائص العبادة المتعلقة بالتوحيد، وآثارها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص العبادة المتعلقة بالتوحيد.

المطلب الثاني: آثار العبادة المتعلقة بالتوحيد.

الخاتمة وفيها أهم النتائج في هذا البحث.

والتزاماً مني بمنهجية البحث العلمي المعتمد في المجالات العلمية المحكمة فقد اقتصرْتُ على ما ذكرت آنفاً مختصراً بعض المباحث التي رأيتها مهمة لإثراء البحث وإخراجه بصورة كاملة واكتفيت بالإشارة إلى بعضها ضمن المباحث المطروحة، فليعزني القارئ الكريم إن وَجَدَ خللاً أو نفذ إلى ثغرة مخلّة بالبحث. وذلك للقصور الذي يعتري البشر، فلا كمال إلا لله وحده.

المبحث التمهيدي

تعريف العبادة، والتوحيد وعلاقتها

المطلب الأول: تعريف العبادة في اللغة والاصطلاح:

أولاً: تعريفها لغة: تجمع معجمات اللغة العربية على أن أهم معنى للعبادة في أصل اشتقاقها هو الخضوع والتذلل والطاعة (علي، 1996م)، ويستدل كثير من أصحابها لما ذهبوا إليه بقولهم: طريق معبد أي مسلك مذل، ويقال تعبد فلان لفلان أي تذلل له. بل إن بعض النحويين كابن سيدة جعل العبادة هي غاية الخضوع ومنتهى التذلل، وأنها أبلغ من الطاعة وأبلغ من العبودية (محمد).

وقد وافق المفسرون اللغويين في فهمهم لمعنى العبادة، فيشير القرطبي إلى معنى العبادة فيقول: "وأصل العبادة التذلل، يقال طريق معبد إذا كانت موطوءة بالأقدام" (محمد)، وكذلك قال صاحب الكشاف "والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل" (محمود، ك. 1953م).

ثانياً: تعريفها اصطلاحاً: ولا يبعد تعريف العبادة في الاصطلاح عن تعريفها في اللغة، إلا أن جمهور مَنْ عَرَفُوا

اصطلاحاً أسبغوا عليها حلة أخلاقية، فخرجت من كونها خضوعاً وتذلاً مجرداً إلى معنى آخر تعاطف بانتساب هذا التذلل والخضوع إلى من يستحقهما، يقول الإمام الرازي: "إن العبودية ذلة ومهانة، إلا أنه كلما كان المولى أشرف وأعلى كانت العبودية به أهناً وأمرأ، ولما كان الله تعالى أشرف الموجودات وأعلاها، فكانت عبوديته أولى من عبودية غيره" (محمد). ومن أهم تعريفات العبادة ما أورده الإمام ابن تيمية في كتابه العبودية بأنها "إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" (أحمد، 1392هـ).

ويقول أبو علي الدقاق: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الوصف بالعبودية" (محمود، 1420هـ). ذلك "لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى ولأن فيها تعظيماً بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه" (يحيى، 1392هـ).

ويؤكد هذا المعنى أيضاً الراغب الأصفهاني بقوله: "العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى" (الراغب).

ويقول الشيخ محمد الغزالي موضحاً المفهوم السابق: "العبادة خضوع مشوب بحب، وليست استسلام المغلوب للظافر، أو إذعان الضائق الخانع للقيد، إنها طاعة المحب لمن يهاب ويجل، وتفانيه فيمن يقدس ويعز، وهي حالة لا تليق بإنسان إلا مع ربه وحده" (الغزالي).

بل يشير القشيري إلى أن شرف العبد يظهر بالعبادة فيقول: "والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمثمة، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمثمة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد، في العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه، والعبادة ظاهرها تذلل وحقيقتها تعزز وتجمل" (عبد الكريم، 1981م).

ولو تأملنا جميع التصنيفات التي بحثت في مفهوم العبادة والعبودية لوجدناها تليس هذين المصطلحين معان أخلاقية، تعظم فيها المعبود، وتقيم العبادة على مفاهيم إلهية يكون فيها طرفاً المعادلة "عابد ومعبود" ووشائجها خوف أو محبة أو تقديس. ولذا فإن أحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن" وذلك "لأنها تضمّنت ما هو وصف واجب لله وما هو وصف للإنسان وواجب له وهو العبودية" (أحمد).

لو أننا تتبعنا في معاني العبد لغة فسنجد أنّ منها ما يراد به الذي عبده الله فذّله وديّره وصرّفه، فإن كل مخلوق عبد لله سبحانه، سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن، فكلهم عبيد لله. يقول ابن تيمية: "وتحرير ذلك أن العبد يراد به العبد الذي عبده الله فذّله وديّره وصرّفه، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار" (أحمد، 200م).

والتذلل وكلمة التوحيد التي تدل على التفرد ونفي النظر والشريك، فإنه يتحقق معنى إفراد الله تعالى بالخضوع والتذلل وتفرد به، بحيث لا يشاركه أحد بها قصداً أو فعلاً، فلا واسطة بين العبد وربه، وإقرار القلب الذي تمثل فيه الخضوع بالاعتقاد الجازم بانفراد الله تعالى بجميع الكمالات في ذاته وصفاته، بل عند الجمع بينهما يتحقق معنى قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (الشورى 11)، جملة وتفصيلاً في العقد والقول والعمل.

المطلب الثالث: العلاقة بين العبادة والتوحيد

يقول الإمام الرازي في بيان العلاقة بين العبادة والتوحيد في تفسير قوله تعالى: "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" (الأعراف 59): الفائدة الثانية: أنه عليه السلام (نوح) ذكر أولاً قوله تعالى: "اعبدوا الله" وثانياً قوله: "ما لكم من إله غيره"، والثاني كالعلة للأول؛ لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلاً من الله، ونهاية الإنعام توجب نهاية التعظيم، فإنما وجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا الله" (محمد).

ويشير الزمخشري إلى أهمية كل من العبادة والتوحيد بقوله: "قلت: الأولى (اعبدوا الله) بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته" (محمود، 1953م).

ويقول سيد قطب في هذا الإطار: "إن دين الله منهج للحياة، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله، وهذا هو معنى عبادة الله وحده، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره" (سيد، 1985).

كما يشير الشيخ الشعراوي إلى هذه العلاقة المتينة بين العبادة والتوحيد بقوله: "وهكذا تكلم نوح عليه السلام عن العقيدة في الإله الواحد المستحق للعبادة، وليس آلهة متعددة" (محمد).

وكل التفاسير المعتمدة تشير إلى الربط بين العبادة والإيمان بتوحيد الله تعالى، فلا عبادة مقبولة بلا إيمان بالوحدانية، وإنما الإيمان دليله العبادة الخالصة لله سبحانه، على أن الإمام الماتريدي جعل العبادة هي التوحيد عند البعض فقال: "قيل: قوله: 'اعبدوا الله' أي وحدوا الله، سموا التوحيد عبادة لأن العبادة لا تكون ولا تصح إلا بالتوحيد فيها لله خالصاً" (محمد، 2005).

وتبدو أهمية العبادة بارتباطها بالتوحيد التي هي أساس الإيمان بالله سبحانه، وإفراده بالعبودية: "وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توحيد العبادة أساس الإسلام، وأنه أول ما يبدأ له في الدعوة إلى الله، ويدل على ذلك رسائله صلى الله عليه وسلم، ومبايعته وجهاده ووصاياه لقواده وغير ذلك من الأمور" (علي، 2009).

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأجوج ومأجوج بأنهم عباد الله، فمن حديث النواس بن سمعان... وهو حديث طويل يرويه عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: "...فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أنني قد أخرجت عبداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي على الطور" (محمد، 1985م).

فقد ذُكر في الإيحاء إلى عيسى عليه السلام نوعان من العباد: نوع كافر هم قوم يأجوج ومأجوج، ونوع مؤمن هم من مع عيسى عليه السلام.

المطلب الثاني: تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح

أولاً: تعريف التوحيد لغة: وكما أجمعت المعجمات اللغوية على معنى العبادة، فإنها كذلك أجمعت على أن معنى التوحيد في أصل اشتقاقه هو الانفراد "فالوحد المنفرد" (الخليل)، ويشير كثير من أصحابها على نفي النظر في لفظ التوحيد فيقول الجرجاني: "وقد أوحدت إيحاداً. وأوحد الله فلاناً: جعله بلا نظير" (محمود، 1998)، ويقال "وَوَحَّدَ بفتح الحاء وكسرها وَوَحِيدٌ أي مُفْرَدٌ وَتَوَحَّدَ بِرأيه تَفَرَّدَ به، وفلان وَاجِدٌ دَهْرُه أي لا نظير له وفلان لا واحد له وَأَوْحَدَهُ اللهُ جعله واحد زمانه وفلان أَوْحَدُ زمانه" (محمد، 1995)، ويُقال في أصل (وحد) للتعبير عن مطلق نفي المثل أيضاً: "المُفْرَدُ من كلِّ شيءٍ، وكذلك الوَحِيدُ" (إسماعيل، 1981)، "والتَّوْحِيدُ: الإِيمانُ باللهِ وحْدَهُ لا شريكَ له واللهُ الواحدُ الأَحَدُ ذو التَّوْحِيدِ والوَحْدَانِيَّةِ". (الخليل).

ثانياً: تعريف التوحيد اصطلاحاً: ولا يبعد تعريف التوحيد في الاصطلاح عن تعريفها في اللغة، إلا أن جمهور من عرّفوها اصطلاحاً أسبغوا عليها حلة عقديّة، فخرجت من كونها منسوبة للإنسان إلى تخصيص المعنى بانتساب هذا التفرد إلى جلال الله تعالى، يقول مراد وهبه: "الوحدانية تفيد نفي النظراء، ولا تستعمل في غير الله تعالى، فهي عدم وجود نظير أو شبيه أو مثيل" (مراد، 1979).

ويضيف المعجم الفلسفي على ذلك بكون الوحدانية "اسم لما هو أُوحد في ذاته وصفاته، فليس له شبيه ولا نظير". (مجمع اللغة العربية، 1979)

ويفصل عامر عبد الله فالح: "الواحد من أسماء الله الحسنى..، وقال سبحانه: 'قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ' (الرعد 16)، وهو الذي تفرّد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه مشارك. ويجب على العبيد توحيدَه، عقداً وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفردَه بالوحدانية، ويفرّده بأنواع العبادة". (عامر، 1997)

وعند الجمع بين كلمة العبادة التي هي بمعنى الخضوع

يبتكر، ويبدع، ويخترع، ويشيد، ويعمل، ويحترف، بل تصبح حياته كلها إبداعاً واختراعاً، وغير ذلك من أسباب الحياة الكريمة.

وإذا كان هذا هو مراد الله من خلقه، فهل يحول الإنسان حياته الكريمة الى حياة عبثية لا قيمة لها، يتساوى فيها مع العجاوات؟ إذ لو فهم الإنسان قيمته في الحياة، وجعل له هدفاً فيها فذلك هو الفهم الصحيح والسليم للقيادة الكون وإعمار الأرض.

وإعمار الأرض بما يرضي الله سبحانه وتعالى داخل في عموم قوله "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رَّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ" (الذاريات: 56-57)، وبمعنى آخر فإن حياة الإنسان الكريمة الفاضلة التي يبذلها بهدف وينهها بتحقيق هذا الهدف تدخل ضمن مفهوم العبادة، قال تعالى: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" (الأنعام: 162-163).

المبحث الثاني

مفهوم العبادة المقبولة وغايتها وارتباطها بالتوحيد

المطلب الأول: العبادة المقبولة وارتباطها بالتوحيد

قلنا في فقرة سابقة إن طرفي المعادلة في العبادة عابد ومعبود، ولو عدنا إلى القرآن الكريم لنتتبع هذا المصطلح "العبادة" فإننا واجدون نوعين عامين منه؛ أحدهما يتعلق بالله سبحانه وتعالى، والآخر يتعلق بالإنسان وبعض الموجودات مما ليس لها قيمة ولا أهمية.

أما الأول: فهو رسالة الأنبياء إلى الناس جميعاً، إذ إن أوامر الله لأتبيائه كانت تتلخص بطلب عبادة الله وحده، وأن الإنسان مخلوق لهذه الغاية، يقول الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56)، وأما وظيفة الأنبياء فقد أشار إليها قوله سبحانه "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (النحل: 36)، بل كانت نداءات الأنبياء لأممهم تتلخص بهذه الدعوة "عبادة الله" "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" (الأعراف: 59)، "وَأَلِيَّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" (الأعراف: 65)، " وَأَلِيَّ نَمُودٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" (الأعراف: 73)، "وَأَلِيَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" (الأعراف: 85)، " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا" (آل عمران: 64)، "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي

وإذا كان التوحيد هو مدار الإيمان بالله، ومركز قبول الأعمال، فإن العبادة المشروعة هي الصورة العملية لهذا التوحيد، وقد أقرها الله سبحانه مظهراً تطبيقياً للإيمان بوحدانيته في آيات كثيرة، وأي إخلال بهذه العبادة يؤدي إلى الإخلال بمفهوم التوحيد، فالله لا يقبل أي عمل -يُطْلَقُ عليه العبد- عبادة إلا إذا كان مرتيناً بالفهم السليم لمعنى الوحدانية، وما يؤدي إليه هذا الفهم من تطبيق، وما يبرجوه فاعله من ثواب، فإذا فهم العبد معنى التوحيد وما يترتب عليه من أمور يُطْلَقُ عليها عبادة، وطبقها قولاً وعملاً وسلوكاً، فقد حقق معنى التوحيد والعبادة معاً، بقوله تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ.." (النحل: 36)، ويقول أيضاً: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" (الأنبياء: 25)، وعلى هذا ف"عبادة الله وحده هي أصل الدين" (أحمد)، وأنها هي الغاية القصوى من الخلق: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56)، ولهذا فلا بد أن نعرف ما هي العبادة؟، وما وخصائصها؟ وآثارها...

يلاحظ القارئ للقرآن الكريم أنه ما من سورة من سوره إلا وفيها لفظة "عبد" أو إحدى مشتقاتها "عبود، عباد، عبادي، نعبد، تعبدون، عبادتي، عابدون،... إلخ".

ولما كانت حياة المسلم كلها قائمة على التوجه إلى خالق أعلى، فإن هذا التوجه (مع ما يرافقه من حالات يمر بها المسلم) محكوم بأوامر ونواهي هذا الخالق، بحيث تصبح الحياة كلها بالنسبة للمسلم مرتبطة بأحكام عامة، تضبط مسيره فيها، وأهم هذه الأحكام ضابطان مهمان هما "الحلال والحرام".

وإذا كانت أفعال الإنسان وأقواله محكومة بهذين الضابطين، فإن الإنسان حينئذ محاسب عليها بحسبهما، ومن خلالهما يثاب أو يعاقب.

والإنسان مهما طال عمره، محدود بزمان معين لا يتعداه أو يتجاوزه، ومرتبطة بمكان محدود متناه، وهو ما يبين بدايته ونهايته لا بد ممثلي بمشاعر وأحاسيس ينبثق عنها سلوكات وأفعال وأقوال تنبئ عما في داخله.

وإذا كانت هذه السلوكات والأفعال والأقوال لا ضابط لها، فإن فاعلها أو قائلها سيكون قائده هواه، وبالتالي فإن حياته ستكون مرتبطة بالتعبد لغير الله سبحانه، وتكون لا ضابط لها ولا حاكم عليها، فيعيش الإنسان حياة منفلة عابثة لاهية، وحينئذ تكون الحياة العامة مليئة بالفوضى والقلق والاضطراب؛ السيد فيها هو القوي، والبقاء فيها للأقوى لا للأفضل.

ولما لم يكن خلق الإنسان عبثاً، بل هو مخلوق لغاية العبادة الشمولية المرتبطة بمفاهيم عقديّة واضحة جعل الله الإنسان خليفة في الأرض وهيئة لقيادة الكون وإعمار الأرض

إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" (الأنبياء: 25).

وأما الثاني: فهو الخطير الذي أخرج الناس من عبادة ربه إلى عبادة أمثالهم أو من دونهم في الإنسانية أو البشرية، وأركسهم في الكفر والضلال، ذلك هو عبادة غير الله بصور متعددة متكررة، يشير القرآن إلى بعضها مجتمعة ومفردة؛ "اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْجُثُونَ" (الصفات: 95)، "أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ" (الأنبياء: 66)، "وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ" (المائدة: 60)، "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً" (العنكبوت: 17)، "قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ" (الشعراء: 71)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً" (النحل: 63)، "قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ" (سبأ: 41)، "أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (يس: 61)، "فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ" (المؤمنون: 47)، "أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ" (الجاثية: 23).

نحن هنا بإزاء معبودات كثيرة، أهم ما يميزها أنها لا تستحق العبادة لأنها مخلوقة مثلنا، والمخلوق لا يستحق عبادة مخلوق مثله، وإنما المستحق للعبادة هو خالق المخلوقات جميعها، يقول الله تعالى: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ" *أمواتٌ غيرٌ أحياءٍ وما يشعرونَ أيانَ يُبْعَثُونَ" (النحل: 20-21)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

غير أن الانحراف عن عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق أسبابه كثيرة، فمنها العقلية، ومنها ما هو خاضع للعادات وتقليد الآباء والأجداد، ومنها التأثير بالوفاة من الفكر، ومنها الانقياد للهوى والشهوات، ومنها الجهل بالخالق ووظيفة المخلوق... والغفلة عن التدبر في هذا الكون، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت الانحراف مظهراً رئيساً للخروج عن الدين القويم الذي أرسل الله به رسله، فظهرت عبادة الأوثان والأصنام، وعبادة الأشخاص، وعبادة الشيطان، وعبادة الهوى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه جميعها تعميمياً وتخصيصاً، والآيات كثيرة تلك التي تتحدث عن المخلوقات المعبودة من دون الله، وما ستؤول إليه هذه العبادة والعاقدون والمعبودون يوم يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى. أما عبدة الطاغوت والأصنام والشياطين وغير ذلك فإنهم عبدوا ما عبدوا لأسباب عدة منها:

أ- تطلهم بالقدر؛ أي أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم ذلك، ولو أراد غيره لفعّل، وهذا ما يتعلل به الذين أشركوا حيث يصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا..." (النحل: 35)، وقال أيضاً: "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ..." (الزخرف: 20).

ب- أنهم وجدوا آباءهم وأقوامهم يعبدون ما يعبدون،

فتمسكوا بموروث آبائهم وأجدادهم، يصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: "قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا" (الأعراف: 70)، ويقول في موضع آخر "أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا" (إبراهيم: 10)، وفي موضع ثالث قالوا وَجَدْنَا آبَاعَنَا لَهَا عَابِدِينَ" (الأنبياء: 53).

ج- أنهم يعبدون ما يعبدون لأغراض شتى من أهمها؛ أنها تقربهم إلى الله زلفى "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر: 3)، أو أنها في ظنهم تملك لهم من النفع أو الضر وغير ذلك من أحوالهم، أو أن تلك العبادة كانت بإغواء من الشياطين، إلى غير ذلك من الانحرافات النفسية والعقلية والإضطرابات الحياتية التي سببتها حياتهم المادية وبعدهم عن المنهج الحياتي السليم المنبثق من الوحي السماوي، فلم يروا أمامهم إلا المادة وما يوصل إليها من قول أو عمل.

وربما يكون للعقائد المختلفة والحضارات المتباينة وما ينشأ عنها من تأثيرات طبيعية نتيجة الاحتكاك الإنساني والتعامل الضروري لاستمرار الحياة دور رئيس ومهم في الابتعاد عن الفطرة السليمة المؤدية إلى الإيمان بالله واحد، واختلاق عقائد فاسدة، واكتساب معارف منحرفة ومعلومات وهمية تبنى عليها أصول فكرية فاسدة، تؤدي إلى عقائد مضطربة مشوهة، ومن ثم إلى حياة لا قيمة لها.

على أن للعبادة المقبولة شروطاً لا تتحقق العبادة إلا بها، من أهم هذه الشروط:

أولاً: الالتزام بما شرعه الله وأرسل به رسله، وهذا الالتزام يشير إلى تقبل العبد أوامر سيده ونواهيه، فيقبل على تنفيذها بجد ونشاط وهمّة عالية، ويقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" (إسماعيل، 1987هـ).

ثانياً: أن تكون العبادة تقرباً إلى الله بأمر مشروع في نظر الإسلام، فيلتزم به العابد حدود الله، تُبنى علاقاته المتعددة على هذه الحدود، ومن لوازم هذا الشرط النية الخالصة لله، والإخلاص في القول والعمل،

ثالثاً: أن لا تكون أعمال الإنسان الدنيوية -وهي عبادة بالشراطين السابقين-، ملهية عن الواجبات المفروضة.

رابعاً: أداء هذه الأعمال بإتقان واستحضار عظمة من يتقدم بها إليه، حيث إن الإتقان خطوة مهمة للإبداع والاحتراف المطلوب، يقول تعالى: " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ

"(البينة5). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"(محمد).
خامساً: فهم معنى العبادة بمعناها العام فهماً سليماً، وتطبيق معناها في حياة الإنسان تطبيقاً كاملاً واعياً، فلا تكون مثالية دون تطبيق، أو تطبيقاً بدون إحساس أو شعور بأهميتها أو خشوع وخوف عند أدائه. وعدم الفصل بين العبادة تقريباً إلى الله وبين أعمال الدنيا اعتماداً على أن الدين غير الدنيا وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

المطلب الثاني: غاية العبادة وارتباطها بالتوحيد

وأما عباد الله المؤمنين به فهم الذين يحق لهم أن يتصفوا بهذه الصفة، ذلك أنهم أفرغوا عقولهم وقلوبهم من شهوات الدنيا ورغبات الحياة، وملأوها بما يجعل لها طعماً لذيذاً، وللكرامة الإنسانية مكانها ومجالها، وجعلوا أفكارهم مسخرة لإعمار الكون فيكونون بذلك قد استحقوا صفة الإنسانية، ونالوا درجة الاستخلاف في الأرض، ذلك لأنهم عرفوا الله فأطاعوه، ولبوا دعوته المتمثلة في إعمار الكون إعماراً سليماً، وعرفوا أنفسهم فوطئوها على تحمل المسؤولية التي أناطها الله بهم، وعرفوا الكون بقوانينه وأنه مسخر لخدمتهم فاستخدموه استخداماً حسناً، وعرفوا علاقتهم بخالقهم وأنه المتفضل عليهم بتكريمهم وخلقهم في أحسن تقويم وأفضل صورة، ومنحهم من النعم ما لا يحصى "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"(إبراهيم:34) فوجب عليهم شكره على هذه النعم، فشكروه بعبادته وطاعته، إذ إن الشكر "هو ظهور نعمة الله على لسان عبده ثناء واعتزافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة"(عفيف). ولكن كيف يكون الشكر من عباد طائعين؟ وهل ترك الله لهم حرية اختيار طريقة شكره؟ لو قلنا: نعم. لكانت إجابتنا تحمل كثيراً من المحاذير، إذ ستؤدي طرق شكر الله المختلفة في نهاية الأمر إلى فساد الكون؛ لأن الله خلق الناس لا على قلب واحد، ولا عقل واحد، ولا مشاعر وأحاسيس واحدة، وإذا كانوا كذلك فلا بد أن يختلفوا، وإذا اختلفوا تنازعوا، وإذا تنازعوا تباغضوا، وإذا تباغضوا اقتتلوا، وإذا اقتتلوا فسد الكون، ومن أجل ذلك لم يتركهم الله سدى، ولم يترك لكل واحد منهم حرية اختيار شكره على نعمه فوضع لهم منهجاً وفق شروط ومعايير مخصوصة بحيث يلتزم بها جميع من آمن به في شتى بقاع الأرض، وعلى مدى عمر الإنسان، ولا يجوز أن يشذ قوم عنها بإضافة إليها أو بإنقاص منها أو بتعديل عليها أو بتبديل لها، وهذه الطرائق هي ما يطلق عليها "العبادات المفروضة" من صلاة وصيام وزكاة وحج.

وقد أشرت فيما مضى إلى أن العبادة هي المطلب الرئيس الذي بعث الله الرسل به إلى خلقه، وما دامت العبادة كذلك، فليست هامشية في حياة الإنسان، ولا هي جزئية من جزئيات حياته، بل هي الحياة كلها، بكل مظاهرها الحسنة، المرتبطة بالهدف منها، وقد أشار الأستاذ العقاد إلى الغاية من العبادة بقوله: "والغرض من عبادات الأديان ينطوي على أغراض متشعبة يضيق بها الحصر؛ لأنها تقابل أغراض الدنيا جميعاً بأغراض الدين، ولكننا قد نجعلها جهد المستطاع في تنبيه المتدين على الدوام إلى حقيقتين لا ينسهما الإنسان في حياته الخاصة أو العامة إلا هبط به النسيان إلى درك البهيمية، واستغرق في هموم مبتذلة لا فرق بينها وبين هموم الحيوان الأعجم إن صح التعبير عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم.

إحدى الحقيقتين التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هي وجوده الروحي الذي ينبغي أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية. والحقيقة الأخرى التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هي الوجود الخالد الباقي إلى جانب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقي إذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية ووراء معيشة قومه، بل معيشة أبناء نوعه، وعبئاً يترقى الإنسان من مرتبة البهيمية إلى مرتبة تعلوها إن جاز أن يعيش أيامه يوماً بعد يوم، وهو لا يذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله، فإن الترقى في كل صورة من صوره يفضي إلى غاية واحدة هي خلاص الإنسان من رقة الإنحصار في مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفردية"(عباس، 1966).

ويقول المرحوم محمد المبارك: "والعبادة تذكر الإنسان بموقعه الحقيقي من الوجود... فهي التي تزيه موقعه باعتباره

ويعد التزام المؤمن بها، فله بعد ذلك أن يتوسع في شكر الله

وتنفيذ لهذا الأمر، مع الإقتناع بأن الله هو الوحيد الجدير بالعبادة والطاعة (محمد).

وإن أدنى درجات العبادة من يعبد الله رغبة في ثوابه أو رهبة من عقابه، يشير الفخر الرازي إلى هذا الأمر حين ينقل عن أهل التحقيق أن العبادة لها ثلاث درجات: أدناها أن يعبد الله طمعاً في الثواب أو هرباً من العقاب، ويقول في هذه الدرجة "وهذه الدرجة نازلة ساقطة جداً؛ لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل الحق وسيلة إلى نيل المطلوب، ومن جعل المطلوب بالذات شيئاً من أحوال الخلق، وجعل الحق وسيلة إليه فهو خسيس جداً" (محمد)، ومن هنا نلمح ارتباط تعريف العبادة بانفراد الله تعالى بالرضا والقبول لما أقدم العبد عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وهي من الغايات التي يحتملها النص القرآني: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، كما أشار إلى هذا الارتباط تعريف ابن تيمية للعبادة الذي ذكرناه سابقاً.

وقد أساء كثير من الناس فهم هذا المعنى للعبادة فظنوها مقصورة على العبادة المخصوصة واكتفوا بهذا الفهم عن إعمار الحياة وفهم العبادة بمعناها العام، وكان هذا سبباً رئيساً في تخلف الأمة وابتعادها عن صدارة الأمم واستسلامها للجهل والضعف والانشغال بما لا يؤدي إلى حياة فاضلة.

وإذا كانت العبادة ليست لهذه الغاية، فإن هناك درجتين أخريين لهما من الأهمية ما يجعل للعبادة قيمة سامية: الأولى: وهي أعلى شأنًا من التي ذكرنا أننا نتلخص في أن يعبد الله للتشرف بعبادته، أو بقبول تكليفه أو بالإنسحاب إليه، وهذه الدرجة ليست كاملة تمام الكمال، إذ هي تقرب إلى الله ببعض ما يتقرب إليه به.

أما الدرجة الأخرى التي هي أعلى مقامات العبودية، وأشرف درجات القرب من الله سبحانه وتعالى فهي أن يعبد الله لكونه إلهاً وخالقاً، وكون الإنسان مخلوقاً وعبداً للخالق. (محمد)

يقول المودودي: "وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتماً يتبعه تصور الإطاعة، ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذلاً، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه، وكان قلبه مفعماً بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه، ويتفنن في إبداء الشكر على آلائه، وفي إبداء شعائر العبودية له" (أبو الأعلى).

والعبادة بهذا المعنى تتضمن أمرين مهمين لا تتضبط إلا بهما، ولا تسمى كذلك إلا بتلازمهما، هما؛ التذلل والخضوع لله مع كمال محبته كما يقول ابن تيمية (أحمد، 1392هـ).

جزءاً من الكون والوجود، ثم تريبه موقعه هو والكون باعتباره وجوداً عارضاً من الوجود الأزلي الثابت، أي باعتباره مخلوقاً لخالق، خاضعاً لأمر حقيقي أعلى، ومرتبباً ارتباطاً دائماً، ومفتقراً افتقاراً مستمراً لغني عن وجود غيره ولقائم بنفسه وذاته" (محمد، 1968)

وإذا كانت الصلة بين الله والعبد تقوم على محبة الله وشكره، فإن هذه الصلة تهدف إلى تحقيق غايتين هما: تربية الضمير الإنساني والحصول على السعادة النفسية، فإذا ما آمن الإنسان بالله واحد لم يعد ينشغل عقله بالله آخر، فيطمئن، وينصرف إلى تحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض، وأن هذه الحياة كلها بما فيها ومن فيها إنما هي لخالق واحد حكيم عليم مدبر، ولهذا دعا الله الناس جميعاً بالتوجه إليه وحده، وعدم خضوع بعضهم لبعض أو تسلط بعضهم على بعض فإن ذلك كله مما يفسد الحياة ويثير كوامن الشر والطغيان (عفيف).

كما يشير سيد قطب إلى هذه الغاية بعد أن يقرر أن هناك غاية لوجود الجن والإنس فيقول: "ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر...، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن، من قول الله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقتها، وذخائرها ومكوناتها، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام...، بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهد في سبيل الله، والجهد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه" (سيد، 1985).

يقول الدكتور غنايم: "وإذا كان هذا هو معنى العبادة الشامل، فما القصد منها، وهل هي غاية في حد ذاتها أم أنها وسيلة لغيرها؟ للإجابة عن هذا السؤال نعود إلى قول الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56)، لنجد فيه الجواب وهو أن العبادة غاية في حد ذاتها وليست وسيلة، أي أنها "طاعة لله، وهي ليست طلباً للثواب أو خوفاً من النار، أو مجرد وسيلة لتهديب النفس، بل هي أمر من الله

المبحث الثالث

خصائص العبادة المتعلقة بالتوحيد، وآثارها

المطلب الأول: خصائص العبادة المتعلقة بالتوحيد:

يشير الباحثون في موضوع العبادة إلى أنها بمفهومها الذي أوردناه تمتاز بعدة خصائص تفرق بينها وبين غيرها من أنماط عبودية البشر، ويمكن استخلاص بعض هذه الخصائص مما مضى من حديث عن العبادة.

أولاً: إن العبادة المقبولة عند الله هي التي تكون خالصة له، فتأتي أعمال الإنسان وأقواله على وفق ما شرعه الله، وما يحبه ويرضاه، ويكون حال الإنسان حال المستسلم لأوامر الله ونواهيه، المحب لما يحبه الله والكاره لما يكرهه الله. ولذا فإن أي تقرب إلى غير الله يؤدي إلى تقديسه وعبادته حرام، بل هو نوع من أنواع الشرك.

وقد تبين ذلك في نصوص قرآنية منها ما ورد في قصة آدم ووعده الشيطان بالإغواء لبني آدم، واستثنى من مكر غوايته المخلصين في توحيد الله تعالى، قال تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا" (النساء: 146).

وإذا كانت العبادة علماً على وحدانية الله سبحانه؛ فإن الإخلاص فيها يؤدي إلى استحقاق محبة المعبود، وهذه المحبة هي أقصى ما يطلبه العابد من معبوده، حيث يحصل بهذه المحبة تقرب المعبود من عابده، وتولي الدفاع عنه أمام خصومه، وفتح باب الحياة السعيدة أمامه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزِّلًا مِّنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ" (فصلت: 30-32). ويقول تعالى: "إِنَّ وِلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" (الأعراف: 196).

وبقدر فهم معنى العبودية والإخلاص للمعبود يبتعد العابد عن مظان الانحراف وعبادة غير الله سبحانه، بل وينفي كل ذلك من حياته فيصبح عبداً ربانياً ينطبق عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه" (إسماعيل، 1987).

والإخلاص في اللغة هو "تنقية الشيء وتهذيبه" (أحمد، 1999)، وفي الاصطلاح تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفاته. (علي، 1987م)

ويترتب على ذلك كله نتائج مهمة تتلخص في أن العابد يصبح عابداً حقيقياً، والعبادة تكون عبادة حقيقية، فلا تكون وهمية، ولا تكون عادة، ولا إجراءات شكلية يقوم بها العابد، بل

لنتهذب بها نفسه، وتترى بها جوارحه، وتتسامى بها مشاعره وأحاسيسه، وتتعالى عن سفاسف الأمور، وأراذل الأعمال في حياته، "فإنه سبحانه وتعالى حقيق بالعبادة وهو ليس بحاجة إليها، إنما هي تقويم وتهذيب للنفس"، والمراد بالعبادة بالمعنى العام سلوك تجاه الله، وهي من مقتضى الإيمان، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره إنما هو إيمان بالطاعة والتصديق، والصدق والعدل، والمعروف والخير، فهذه الطاعة وبما أنزله الله على رسوله إنما هي عبادة، فالطاعة والصلاة عبادة، والصوم عبادة، والتعامل بالحق والخير عبادة، والسلوكية عبادة، والخوف من الله في كل لحظة، ومراقبة نفسك أمام الله، وتوخي مرضاة الله واتباع المرء لما شرعه الله، كل هذه الأمور هي العبادة الحقيقية وهي المقصودة في ذاتها بالمعنى العام، وما العبادة بالمعنى الخاص إلا تهيئة للنفس لهذه العبادة العامة، وهي التربية العليا المنشودة (عبد السلام، 1986).

وإذا تحقق العابد بمقام العبودية لله سبحانه أدى ذلك إلى تميز شخصيته وارتباطها بمقام العبودية، وعدم الالتفات إلى غير الله ممن هم مثله في الإنسانية أو أدنى منه في الحيوانية، وما لا يقاس عليهم من الجمادات، وغيرها، وحينئذ لا يسأل العابد إلا معبوده، ولا يثق إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يحتاج إلا إليه، ولا يطمع في سواه، ولا يستعين إلا به، ولا يرجو غيره، ولا يؤمن إلا به ضاراً ونافعاً ورازقاً ومنعماً وناصراً ومؤيداً...، فيكون عابداً حقاً لمعبود حق، وهذا هو عين معنى شهادة أن لا إله إلا الله: "فتوحيد الألوهية مبني على إخلاص العبادة لله وحده، في باطنها وظاهرها، بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه، فالؤمن بالله يعبد الله وحده ولا يعبد غيره، فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأشكالها" (محمد، 1978).

ثانياً: إن العبادة ليست مقصورة على شخص بعينه أو أمة بعينها، بل هي متاحة لكل المؤمنين بالله سبحانه وتعالى، وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من خواصهم أو من جمهورهم، فالكل يعبد الله - بشرائط العبادة - بقدر طاقته وإمكاناته فيقول تعالى: "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (البقرة: 286). والتنافس بينهم فيما يقدمون من أعمال وأقوال تقربهم إلى الله. يقول تعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ" (المؤمنون: 60-61)، وقال أيضاً: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ" (الواقعة: 11-12).

ثالثاً: إن العبادة تشمل جميع أعمال الإنسان وأقواله وتفكيره وأحوال قلبه، إذا اقترنت بالنية الصادقة، فكل ما يأتي الإنسان مما هو مشروع وغير مخالف لأوامر الله ونواهيه فهو عبادة،

مع الله أم مع غيره من الكائنات، وهذا الخلل يؤدي إلى مفسد كثيرة وكبيرة، تنتهي بصاحبها إلى الهلاك إن لم يتراجع عنها ويتوب.

رابعاً: إن العبادة مبنية على الموازنة بين الدنيا والآخرة، فلا تطغى أعمال الدنيا على أعمال الآخرة، ولا كذلك تطغى أعمال الآخرة على أعمال الدنيا، بل "عمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وعمل لآخرتك كأنك تموت غداً" (يحيى، 2001)، والأولى من هذا الحديث قوله تعالى: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: 77).

خامساً: إن العبادة مبنية على اليسر ورفع الحرج، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن الله بعثه بالحنيفية السمحة (عبد الرؤوف، 1972م) فإن الإسلام لم يكلف الإنسان ما لا يطيقه ولا يقدر عليه، ولم يطلب منه التشدد في العبادة ولا الغلو فيها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم..." (سليمان، 1983).

ويشير الدكتور القرضاوي إلى هذه الخاصية بقوله: "وإذا كانت وجهة الإسلام هي التيسير، فكل مسلم يبغى التشدد والتعننت إنما يعاند روح الإسلام" (يوسف، 1985)، ولذا فإن الله شرع الرخص للذين لا يستطيعون الأخذ بالعزائم تخفيفاً عنهم وتيسيراً لهم للقيام بواجب شكر المنعم.

سادساً: العبادة لا تحتاج إلى واسطة بين العابد والمعبود، ولا إلى تمهيد يقدمه العابد بين يدي معبوده، إذ العلاقة مباشرة بين الإنسان وبين ربه، لا شأن فيها لأحد، ولذا فإن أفضل العبادة ما خفي عن العباد، وبقدر استشعار الإنسان لها تكون قيمتها في نفسه، وتعلو عند ربه فيعلو بها ويرتفع مقامه. يقول الله تعالى: "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" (الزمر: 3).

وعلى هذا فليس في الإسلام وجود لمن يطلق عليهم "رجال دين" وليس هناك طبقة لها امتيازات دينية خاصة من شأنها التوسط بين الخالق وبين عباده، إذ كل مسلم ومسلمة يتصلون بخالقهم اتصالاً مباشراً حين يؤدون ما عليهم، وحين يتقربون إليه بالطاعات المختلفة الخاصة به أو المتعلقة بالعباد أمثالهم، مستحضرين في كل فعل أو قول، مستذكرين أنه معهم يراهم ويطلع على أفعالهم وأقوالهم فلا حاجة للوسائط بينه وبينهم.

كما لا وجود لقرابين تقدم بين يدي العبادة، ولا طقوسا معينة - غير التي شرعها الله- يجريها الإنسان قبل الدخول في فعل العبادة أو أثناءه.

من أدنى الأعمال وأقلها شأنًا "إمطة الأذى عن الطريق" إلى أعلاها وأهمها شأنًا "حق الشهادتين".

وعبادة القلب تتجلى في كثير من المظاهر الأخلاقية التي تتم عن صفات المسلم الحق كالذكر والدعاء والتواضع والحياء والسكينة والمحبة والمجاهدة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء والمراقبة.

ولذا فإن تزكية القلب أمر ضروري ومهم في تزكية الظاهر، وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح" (محمد).

ولا يمكن للقلب أن يصل إلى المرتبة العليا في العبادة إلا بتطهيره من خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف كما يقول الغزالي (محمد).

وبموازاة العبادة القلبية فهناك عبادة أخرى لا تقل أهمية عنها هي عبادة التفكير أو ما يمكن تسميته العبادة العقلية المتمثلة بالتفكير والتدبر والتأمل فيما يمكن أن يكون موضعاً للتأمل العقلي.

والعقل حسب وظيفته التي أناطها الله به يتجه اتجاهين في عمله كلاهما عبادة إذا كان الهدف منهما تحقيق ما أراد الله سبحانه.

أما الاتجاه الأول: فهو التأمل والتدبر والتفكير في هذا الكون وما فيه من مظاهر كونية يصل من خلالها إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ووجدانيته، وأن لهذا الكون محدثاً أحدثه.

وأما الاتجاه الثاني: فهو إعمار الأرض، ولا يتم هذا الإعمار إلا بالابتكار والإبداع والاختراع في كل مناحي الحياة المادية بما يُسمى بالعلوم التجريبية.

وليس مهمة العقل التأمل والتفكير والتدبر فحسب، بل النظر والاستدلال أيضاً في مجاله المسموح له أن ينطلق فيه، لإدراك الغاية الموكولة للإنسان لمهمة الاستخلاف في الأرض. فإذا ما تم عقل العاقل فقد وصل إلى مراده، وأصبح مكلفاً بالمهمة التي كلفه الله بها في الدنيا: يقول ابن الجوزي: "إنما تتبين فضيلة الشيء بثمرته وفائدته، وقد عرفت ثمرة العقل وفائدته؛ فإنه هو الذي دل على الإله، وأمر بطاعته وامتثال أمره... وأدرك الأمور الغامضة، ودبر على استخدام المخلوقات فاستخدمها، وحث على الفضائل ونهى عن الرذائل..." (عبد الرحمن، 1998).

على أننا لا يجب أن نُهمل القول بأن العبادة ليست فقط في إقامة الطاعات بشموليتها، بل إن من العبادة المقررة ترك المعاصي، فكما يُثاب الإنسان على الطاعة فإنه يُثاب على ترك المعصية، وبمفهوم آخر فإن عمل المعاصي مظهر من مظاهر الخلل في التوجه القلبي والعقلي إلى الله سبحانه الذي يؤدي إلى خلل ظاهري في التعاملات الإنسانية سواء أكانت

"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ" (البقرة: 138).

والصبغة الربانية في حياة المسلم "تجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه للحياة، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع، وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة على أمثل وجوها" (يوسف، 1985).

وآثار العبادة كثيرة جداً، استتبط العلماء الربانيون منها ما يتعلق بالفرد ومنها ما يتعلق بالمجتمع والأمة:

أولاً: ما يتعلق بالفرد: أ- فما يتعلق بالفرد نجد أن العبادة توحد العلاقة بينه وبين خالقه، ليستحق رضاه والفوز بجائزته التي لا تتال إلا بالجدد والمجاهدة، كما لمس الربانيون أن العبادة لها تأثير كبير على سلوك العابد وتقييم سلوكه وتهذيب أخلاقه، وضبط تصرفاته حيال نفسه وحيال غيره" فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الإسلامية- أو التصور الإسلامي للوجود- حية في النفس، وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحس ويشعر فتجعلها بذلك قوة دافعة لها حرارتها ولها فورها، فالعبادة في الإسلام هي الوسيلة التي تنقل الإنسان من الحال الأولى إلى الحال الثانية، فهي توقد جذوة العقيدة وتغذيها وتتغذى بها، وتحببها وتحببها بها" (محمد، 1986).

ب- ترقية الجانب الروحي من الإنسان من ثمار العبادة السليمة، وكذلك تنمية الجانب الخلفي، والجانبين المادي والعقلي، بحيث يتسامى الإنسان عن سفاسف الأمور، ويرتقي في معارج الصلاح والتقوى، ويزود بشحنات قوية من الإيمان تدفعه للعمل الجاد النافع في كل مجالات الحياة، وبهذا يدخل الإنسان من السلبية في الحياة إلى الإيجابية فيها، وينخلع من جميع الحالات التي تؤدي به إلى التقهقر والتخلف والانطواء على الذات، فيتفاعل مع الحياة بكل معطياتها؛ مبدعاً، منتجاً، فاعلاً، مؤثراً في صياغة الحياة كما يريد الله سبحانه وتعالى؛ لا كما يريد البشر، مغلفاً ذلك كله بكم كبير وهائل من الفضائل التي تجعل منه إسلاماً كاملاً يذب على الأرض، ينشر الفضيلة حيث حل، ويحرص على أمن المجتمع وأمانه، ويسعى لإشاعة الحياة الآمنة بين الناس، وتربيتهم على المحبة والتعاون والإخاء والإيثار، وغير ذلك من مظاهر السلام، وينأى بهم عن الفرقة والعصبية والقومية والمصالح الذاتية، ويحميهم من الانحراف ويبعدهم عن الرذائل" فالعبادات ليست رموزاً جامدة لا روح فيها، ولا طقوساً مبهمة، وإنما هي أعمال متكررة لتعويد المسلم أن يحيى بأخلاق صحيحة، ويستمسك بها متمسكاً من مداومة عليها رضوان الله ومثوبته" (محمد، 2001).

ج- كما أن العبادة لها دور كبير في تنقية النفس الإنسانية

سابعاً: العبادة مستمرة ودائمة بدوام حياة الإنسان، فما دام الإنسان حياً فهو مطالب بأداء ما طلب منه على وجه الاستمرار، ولا يسقط عنه أبداً، إلا إذا فقد القدرة عليه فقدانا تاماً فقد أكرمه الله بالرخص وما يقوم مقام العبادة، هذا فيما يتعلق بالمفروضات، أما العبادة النافلة فالإنسان بالخيار من أمره إن شاء استزاد منها وإن لم يشأ فلا شيء عليه، ولكن هذا المكتفي بما افترضه الله عليه ليس كمن يزداد قرباً من الله بالنوافل التي توصل إلى محبة الله له. "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" (إسماعيل، 1987هـ).

ثامناً: العبادات "المفروضة" لا تعطل، ولا تطلب الحكمة من كونها على هيئات وكيفيات مخصوصة وإن كانت لا تخلو من علة وحكمة وغاية قد تظهر وقد لا تظهر، ولا مانع من تلمسها والبحث عنها، فلا نقول في الوضوء -مثلاً- إنه نظافة، ولا نقول في الصلاة إنها رياضة، ولا في الحج إنه سياحة، ولا في الصوم إنه علاج، ولا في الزكاة إنها هبة أو تبرع، بل نقول لمن طلبها على هذه الهيئات وتلك الكيفيات سمعاً وطاعة، نوذيتها في أوقاتها دون أن نقول لم؟، ولا ما الفائدة؟، فالعبادات توقيفية لا تعطل لأن الحكم المعلل هو الذي يرد دليل على علته، وحيث لم يرد دليل على ذلك وجب أن نتوقف عن السؤال وطلب الحكمة.

على أننا يمكن أن نتلمس الحكم من هذه العبادات من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية كقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا نَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ شَيْئًا، قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ، يَمَحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا" (إسماعيل، 1987).

وإذا كانت خصائص العبادة مستقاة من أهميتها ومفهومها والغاية منها فلا بأس بعد ذلك أن نتلمس آثارها ونجني ثمارها ونحقق الغاية منها.

المطلب الثاني: آثار العبادة المتعلقة بالتوحيد.

يقول الشيخ القرظاوي: "إن شمول العبادة في الإسلام - ما شرحنا- له آثار مباركة في النفس والحياة يحسها الإنسان في ذاته، ويلمسها في غيره، ويرى ظلالها في الحياة من حوله" (يوسف، 1985). فالعبادة آثار كثيرة يلمسها المسلم الحق في حياته ويشعر بها فهي تصبغ الحياة الإسلامية صبغة ربانية: حيث إن الملتمزم بالشعائر العبادية المتصلة كمال الاتصال بالتوحيد يحقق تلك الصبغة الربانية التي لا تتحقق إلا بأداء العبادات القلبية والسلوكية مرتبطة بالتوحيد قال تعالى:

ثانياً: ما يتعلق بالمجتمع: من المؤكد أن مجتمعاً أفراده عابدون لله عبودية حقة سيكون مجتمعاً مثالياً فاضلاً، ليس كما رآه أفلاطون أو الفارابي في مدينتيهما الفاضلتين، وإنما كما يريد الله سبحانه وتعالى؛ مجتمعاً مثالياً بمبادئ قابلة للتطبيق في الواقع، متأخياً في الله حق الإخاء، ينطبق عليه قول الله تعالى: "... وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً" (آل عمران: 103)، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (إسماعيل، 1987).

ومتحاباً، متكافلاً، مؤثراً كل واحد من أفراده أخاه على نفسه، قائماً بحق المجتمع عليه، وحق المجتمع عليه كثير منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (مسلم).

ومتراحماً عطوفاً بعضه على بعض، ففي المجتمع المسكين والفقير واليتيم والمحتاج والمريض والمصاب والمعسر والمدين ومن لا يستطيع النفقة على أهله، ومن سجن مظلوماً، والأرملة، ومن لا معيل لها 1000 إنخ وكل هؤلاء بحاجة إلى مجتمع رباني يعرف واجبه تجاههم، فيتحسس آلامهم وأمراضهم وأحزانهم فيخفف عنهم بالمال وبالكلمة الطيبة وبالمساعدة الممكنة، وقد وصفت السيدة خديجة رضي الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقولها له عندما أخبرها بما حصل معه في بداية نزول الوحي عليه: "... أبشُرُ فوالله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (أحمد، 1985).

ويصفهم الرسول بقوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (مسلم).

وقد وصف عمر بن الخطاب المجتمع الإسلامي الأول عندما طلب منه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يتولى القضاء بين الناس، فمكث عمر سنة كاملة لم يعقد جلسة قضاء واحدة إذ لم يأته مشتك ولا متظلم ولا مخاصم، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه طالباً إعفائه من هذه المهمة، فقال أبو بكر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ فقال عمر رضي الله عنه لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين؛ عرف كل واحد منهم ماله من حق فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يُفصّر في أدائه، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه؛ إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أُصيب

من أمراضها وشوائبها، إذ يكفي أن تنشئ إنساناً مستقيماً، مستشعراً مراقبة الله له، متوازناً، ذا شخصية ثابتة صالحة لسيادة الكون وإعمارهِ، ليكون مستخلفاً في أرض الله، وتوفر له أسباب الاطمئنان القلبي والاستقرار النفسي والعقلي، وتمنحه سعادة لا يشعر بها إلا أمثاله من الصالحين، وتحرره من كل ضعف أو تخاذل واستسلام، وتعطيه من القوة ما يجعله دائماً عزيزاً مهيباً، متعالياً عن رغبات النفس وشهواتها إلا فيما لله فيه رضا، وللحياة فيه مطلب مشروع، حينئذ يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يغضب ولا يتسخط إن ابتلي أو أصيب بمكروه أو نقص في المال أو الأهل والولد، راضياً بأقدار الله، مؤمناً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

د- وفهم الفرد لمعنى العبادة المطلق وأنها علامة واضحة على قوة الإيمان بالله تجعله يراقب الله في كل أعماله، بل في كل حركاته وسكناته، مستشعراً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (إسماعيل، 1987) فإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة العالية وترقى في مقامات التقرب لى الله سبحانه وتعالى، استحق درجة العبودية التي مدح الله فيها من وصلوا إليها بقوله سبحانه " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما..." (الفرقان، 63)، وهذا الوصف مما وصف الله به أنبياءهم عليهم السلام في كثير من الآيات.

هـ- وإذا ما أدرك الفرد أن حياته كلها لله وفي الله أصبح عبداً ربانياً، وأصبح همه في هذه الحياة الدنيا العمل بطاعة الله ومحبتة؛ فيحب من يحبه الله، ويرجو للعاصي التوبة والمغفرة، وتكون ضوابطه في الدنيا الخوف من الله والتذلل له، وحفظ حدوده ومحارمه؛ فلا يرى إلا الله رقيباً فلا يخطئ، ولا يرى إلا الله رحيماً فيرحم، ولا يخشى إلا الله فلا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يرى إلا الله يعطي ويمنع فلا يلجأ إلى مخلوق بطلب، ولا إلى مظهر من مظاهر الدنيا بسبيل رفعة فيركن إليه. وهكذا هو العبد الرباني فهو كما وصفه ابن القيم بقوله: "... زاهد في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله... منفرد في طريق طلبه، لا تقيدته الرسوم، ولا تملكه الفوائد، ولا يفرح بوجود، ولا يأسف على مفقود، من جالسه قرت به عينه، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه... وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال... لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقاً، ولا يرى له على أحد فضلاً..." (محمد، 1994م)، ولو توسعنا في بيان حقيقته لما أدركناها.

عزها ذلاً وأصبحت حياتها نكدة وآلت إلى الفشل والخسران وفقدان الذات وضياح الهوية.
وأخيراً، فإن العبادة بمعناها الشامل تحقق مجتمعاً فاضلاً، خالياً من أمراض المجتمعات الفاسدة، وتوجد إنساناً يعرف هدفه في الحياة وقيمه فيها، فيسعى ولا يكِل، ويجتهد ولا يخشى الفشل، وفي نهاية الأمر فإنه السيد في هذا الكون الذي يحقق معنى الاستخلاف في الأرض، ويكون إنساناً رباتياً جديراً بهذا الوصف وبهذا الاستخلاف.

الخاتمة

مما سبق في هذا البحث نخلص إلى عديد من النتائج من أهمها:

أولاً: أن العلاقة بين العبادة والتوحيد علاقة تلازم لا انفك بينهما إذ إن توحيد الألوهية يعني أفراد الله سبحانه وحده بالعبادة، بل يطلق عليه توحيد العبادة؛ لأنّ الألوهية والعبودية بمعنى واحد (علي، 2009).

ثانياً: أنّ مفهوم العبادة لا يقتصر على العبادة المخصوصة، بل العبادة بمعناها المطلق الشامل لكل أعمال الإنسان وأقواله الخاضعة لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثالثاً: العبودية لغير الله مرفوضة وتحمل معنى الذل والخضوع المجريدين، وأما العبادة الحقّة لله سبحانه فخرجت من كونها ذلاً وخضوعاً مجردين إلى معنى يتعاطم بعظمة المعبود.
رابعاً: كانت وظيفة الأنبياء الرئيسية والمهمة الدعوة إلى عبادة الله وحده.

خامساً: أسباب عبادة غير الله كثيرة ومتعددة بتعدد أهواء العابدين.

سادساً: عبادة الله سبحانه هي تعبير موحد من العابدين له سبحانه لشكره على نعمه بطريقته التي يريد لا بطرقهم التي يريدون.

سابعاً: السبب الأساس في خلق الله الإنسان هو الاستخلاف في الأرض والتمكين له لإقامة حياة خالية من الانحرافات والشوائب.

ثامناً: لتكون العبادة عبادة لا بد لها من شروط وخصائص تجعلها مقبولة، كما أنّ لها ميزات تميّز فاعلها عن غيره سواء أكان فرداً في مجتمع، أم مجتمعاً في أمة.

واسوه، دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيم يختصمون يا خليفة رسول الله؟" (طه، 1981).
فهو مجتمع مثالي واقعي لم يعهد مثله مجتمع في تاريخ الإنسانية بهذه الأوصاف التي جعلت من هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس؛ تقيم الأمن والسلام المجتمعي، وتحافظ على الأمانة التي استأنها الله عزّ وجلّ عليها، فيدا المجتمع المسلم مجتمعاً متحاباً متألّفاً متحداً شعاره قول الله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا" (آل عمران: 103)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" (مسلم).

ومن سمات المجتمع المسلم أنه مجتمع موحد في الغايات والأهداف والتوجهات والمبادئ، تربطه رابطة واحدة هي الإسلام، وإله واحد هو الله تعالى، ونبى واحد هو محمد رسول الله، وقبلة واحدة، وعبادات مخصوصة واحدة، وقانون ناظم لأحوالهم جميعاً هو القرآن الكريم والسنة النبوية، وهدفهم واحد هو إقامة دين الله في الأرض لإحلال المن والأمان في المجتمع والأمة؛ فلا ظلم، ولا طغيان، ولا فساد، ولا أنانية، ولا اعتداء على الحقوق، بل عدل وإحسان وعفو وتعاون وعفة وطهارة وتماسك وشورى ومؤاخاة وتعاطف وأعمال بر. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأله رجل عن أحب الناس إلى الله وأحب الأعمال إلى الله: "أحب الناس على الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً - يعني مسجد المدينة - ...". (سليمان، 1415هـ).

فالإتحاد هنا يشمل اجتماع القلوب واجتماع الأهداف واجتماع الكلمة، فإن اجتماع القلوب والأهداف والكلمة مبشر على أن الأمة تسير في طريق العزة والسيادة ورغد العيش ورفاهية الحياة، وما تفرقت أمة واختلقت كلمتها وتفرقت أهدافها إلا تازعت في أمرها واضمحلقت قوتها وضعف سلطانها وتبدل

المصادر والمراجع

- السايس، م. د.ت، تفسير آيات الأحكام، بدون رقم طبعة، القاهرة، مطبعة على صبيح، ج1، ص11.
- ابن سيده، ع. 1996م، المخصص، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج4، ص62.
- الشجري، ي. 2001م، ترتيب الأمانى الخمسية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص231.
- الشعراوي، م. د.ت، تفسير الشعراوي، بدون رقم طبعة، نشر وطباعة أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج7، ص4194.
- الشوكاني، م. د.ت، فتح القدير، بدون طبعة، بيروت، دار المعرفة، ج1، ص22، مجلد2، ص216.
- الصابوني، م. 1980م، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، ط3، دمشق، بيروت، ط3، مكتبة الغزالي، مؤسسة مناهل العرفان، ج1، ص27.
- الصاحب، إ. 1401هـ، المحيط في اللغة، ط1، بدون بلد أو دار نشر، ج3، ص387.
- الصلابي، ع. 2009م، الإيمان بالله جل جلاله، ط1، بيروت، دار المعرفة، ص85، ص94-95، ص17، ص84.
- طبارة، ع. د.ت، روح الدين الإسلامي، ط2، منشورات جماعة عباد الرحمن، ص16، ص143-159.
- الطبراني، س. المعجم الأوسط، بدون طبعة، القاهرة، دار الحرمين، ج6، ص139.
- الطبراني، س. 1983م، المعجم الكبير، ط2، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ج6، ص73.
- عثمان، ع. 1982م، معالم الثقافة الإسلامية، بدون رقم طبعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص151.
- العقاد، ع. د.ت، حقائق الإسلام وأبطال خصومه، ط3، بيروت، دار الكتاب العربي، ص154-155.
- العفيفي، ط. 1981م، من وصايا الرسول، بدون رقم طبعة، القاهرة، دار التراث العربي، ص257.
- العيني، م. 1420هـ، شرح سنن أبي داود، ط1، الرياض، مكتبة الرشد، ج4، ص239.
- الغزالي، م. د.ت، إحياء علوم الدين، بدون طبعة، بيروت، دار الفكر، ج1، ص121، ج1، ص48.
- الغزالي، م. د.ت، هذا ديننا، بدون طبعة، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، ص99.
- غنايم، م. د.ت، العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، بدون رقم طبعة، الزرقاء، الأردن، مكتبة المنار، ص16، ص18.
- الغنيمات، أ. بدون سنة نشر، جهود شيخ الإسلام في توضيح توحيد العبادات، بدون رقم طبعة أو دار نشر، ص369.
- ابن فارس، أ. 1999م، معجم مقاييس اللغة، ط1، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ج2، ص208.
- فالح، غ. 1997م، معجم ألفاظ العقيدة، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان، ص435.
- الفراهيدي، خ. د.ت، كتاب العين، بدون طبعة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ج3، ص281.
- الألباني، م. 1421هـ، الرد المفحم على من خالف العلماء وتشدد وتعصب وألزم المرأة أن تستر وجهها وكفيها وأوجب ولم يقنع بقولهم إنها سنة ومستحبة، ط1، عمان، المكتبة الإسلامية، ج1، ص146.
- الألباني، م. د.ت، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط1، الرياض، مكتبة المعارف، ج7، ص332.
- الألباني، م. 1992م، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ط1، الرياض، دار المعارف، ج1، ص63.
- البخاري، إ. بدون سنة، التاريخ الكبير، بدون رقم طبعة، بيروت، دار الكتب العلمية، مجلد4، ص97.
- البخاري، إ. 1987، صحيح البخاري،، ط3، بيروت، دار ابن كثير، ج5، ص2384، ج1، ص27، ج1، ص197، ج1، ص14، ج1، ص144.
- البيهقي، أ. 1985م دلائل النبوة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص136.
- التبريزي، م. 1985م، مشكاة المصابيح، ط3، بيروت، نشر المكتب الإسلامي، ج3، ص7-15.
- التونخي، ع. 1986م، العقيدة في القرآن، ط1، طرابلس، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ص54-55.
- ابن تيمية، أ. 1399هـ، أمراض القلوب وشفاؤها، ط2، القاهرة، المطبعة السلفية، ص44.
- ابن تيمية، أ. 2005م، العبودية، ط7، بيروت، المكتب الإسلامي، ص50.
- ابن تيمية، أ. 1392هـ، العبودية، ط3، بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ص38، ص44.
- ابن الجوزي، ع. 1998م، ذم الهوى، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، ص33.
- حموده، م. 2001م، المرجع في فقه العبادات، ط1، عمان، مؤسسة الوراق للنشر، ص23.
- ابن حجر، أ. د.ت، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بدون طبعة، الرياض، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ج10- ص750.
- الراغب الأصفهاني، ح. د.ت، المفردات في غريب القرآن، بدون طبعة، بيروت، دار المعرفة، ص319.
- الرازي، م. د.ت، التفسير الكبير، بدون طبعة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مجلد1، ص209، مجلد5، ص295، مجلد1، ص214.
- الرازي، م. 1995م، مختار الصحاح، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ج1، ص740.
- الزمخشري، م. 1953م، الكشف عن حقائق التنزيل، ط2، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ص11، ج2، ص216.
- الزمخشري، م. 1998م، أساس البلاغة، ط1، بيروت، مكتبة لبنان، ج2، ص323.

- الفيروزأبادي، م. د.ت، القاموس المحيط، بدون رقم طبعة، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ج1، ص311.
- القرضاوي، ي. 1985م، العبادة في الإسلام، ط15، القاهرة، مكتبة وهبه، ص196، 49، ص66.
- القرطبي، م. د.ت، الجامع لأحكام القرآن، بدون رقم طبعة، بيروت، مؤسسة مناهل العرفان، ج1، ص25.
- القسيري، ع. 1981م، لطائف الإشارات، ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول، ص48.
- قطب، س. 1985م، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ج8، ص1308، ج27، ص3387.
- ابن قيم، م. 1991م، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج4، ص156.
- ابن قيم، م. طريق الهجرتين وباب السعادة، ط2، الدمام، دار ابن القيم، ص91.
- الماتريدي، م. 2005م، تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج4، ص156.
- بيروت، دار الكتب العلمية، ج4، ص468.
- المبارك، م. 1968م، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ط1، دار الفكر، ص190-191، ص190.
- المنائي، ع. 1972م، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط2، بيروت، دار المعرفة، ج3، ص203.
- المودودي، أ. د.ت، المصطلحات الأربعة في القرآن، بدون رقم طبعة، دمشق، المطبعة الهاشمية، ص96-97.
- النووي، م. 1392هـ، المنهاج في شرح مسلم، ط2، بيروت، دار إحياء التراث، ج15، ص7، ج1-ص175.
- النيسابوري، م. د.ت، صحيح مسلم بشرح النووي، بدون رقم طبعة، بيروت، دمشق، مكتبة الغزالي، مؤسسة مناهل العرفان، ص131.
- وهبة، م. 1979م، المعجم الفلسفي، ط3، مصر، دار الثقافة الجديدة، ص468.
- ياسين، م. 1978م، الإيمان أركان حقيقته نواقضه، ط1، عمان، الأردن، ط1، جمعية عمال المطابع التعاونية، ص10.

Worshipping and its Relationship to Oneness

*Mohammad Al-Omari **

ABSTRACT

The present study investigates the relationship between worshipping and Oneness, and answers the question about the reason behind worshipping and whether Allah needs our worshipping or not.

The study shows the impact of worship on Man and society which needs worshipping for the sake of it's elevation to the level of highness of humanity which makes human kind able to serve as vicegerent on earth, and to be the society of virtue as Islam seeks it to be.

The study also shows that worshipping is not only confined to ritual practices of prayers, fasting...etc. On the contrary worshipping has a comprehensive and wide sense which covers Man from inside and outside. Worshipping also includes doing good deeds, abandoning denied deeds, mental activities like deep thinking and reflection which all should be reflected on behavior as a vicegerent in the universe which is committed to the ethics of best of nations and mankind.

Keywords: Worshipping, Oneness.

* Factually of Shari'a, The University of Jordan. Received on 11/2/2015 and Accepted for Publication on 12/4/2015.